الأخبار
al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب
■ مديرا التحرير:
إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير:
محمد زبيب
حسن عليق
إيلي حنا
امل الاندري
شريك كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونات ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500
01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500
■ التوزيع
شركة الأوائل
01 /666314ـ15 ـ
03 / 828381
■ الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

حزب الله في سورية... حركة التاريخ وصناعته!

صادق النابلسي *

مع بداية الأزمة في سورية وقف حزب الله أمام مشهد شديد التعقيد والضبابية. لم يكن سهلاً فيه تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. مجهولية لطبيعة الحراكات الشعبية ومجراها وأهدافها وأبعادها. معطيات محدودة وغير كافية حول طبيعة تطور الأوضاع الميدانية. الوقائع تخضع لشتى أنواع التصفيحات والتبريرات. بيروقراطية وتوريات وغموض تعكس ميكانيزم النظام السوري وتقاليده وخصوصياته في نشر المعلومات. كل ذلك كان يضيّع على الحزب فرص معرفة ما يجري بنحو وافٍ لتحليله ووضع أسس للتعامل معه حتى لو تبيّن أنّه الأكثر شؤماً وسوءاً في مسار التحدّيات التي واجهها منذ نشأته.

جرت الأمور على قاعدة «الخطوة- خطوة» لفتح طريق للوصول إلى المعلومة الكاملة التي كان يحجبه عنها قناع من الدعاية والأيديولوجيا وطبقات مترسبة من اللاوعي السياسي والإعلامي داخل بنية النظام. تتسارع الأحداث ومعها الخطوات لاكتناه الواقع الذي لم يكن ليستحوذ كل هذا الاهتمام والتدّخل الخارجي لولا وجود مخطط يسير خلف الصورة الأولى للحراكات الشعبية وما أنتجته من إسقاطات ذهنية وتفسخات اجتماعية واختلالات طائفية شكلت البداية لما هو أعظم!

في الأيام والأسابيع الأولى للأزمة بدا حزب الله على تواصل مباشر مع النظام (الحليف الوفي) الذي يتشارك معه الثوابت والخيارات الاستراتيجية، ومع شخصيات معارضِة لها مآخذ وملاحظات نقدّية جذرية على أداء النظام خصوصاً على مستوى السياسات الداخلية والبرامج الاجتماعية والاقتصادية حيث التّماس المباشر معهما يمكن أن يُفسح المجال أمام توضيح النوايا بشكل أفضل وبالتالي وضع حلول سريعة لإنهاء الأزمة. تعامل النظام ببراغماتية عالية واستجاب لوساطة حزب الله ودول صديقة أخرى دعته إلى تبني مجموعة من الإصلاحات الفورية التي كان أبرزها حل الحكومة، رفع قانون الطوارىء، إلغاء محكمة أمن الدولة، تشكيل هيئة حوار مع المعارضة، إصدار قانون عفو عام، وغيرها من الإجراءات والقرارات التي فاقت ما كانت تطالب به المعارضة نفسها. لكن الشخصيات المعارضِة التي كانت بمعظمها مرتبطة بأجندات خارجية وسّعت ساحة مناوراتها لاستغلال النظام إلى أقصى حد ممكن، إلى أن ابتعدت بنحو كامل وتبنّت الخيار العسكري وإسقاط النظام بعد شهرين فقط من انطلاق الحراك الشعبي.

إلى هنا كان الحزب يؤكد في مواقفه الإعلامية على الحوار لاحتواء الأزمة ويشجع المعارضة عليه ويدعوها لعدم التورط في مسار عنفي صدامي لأنّ من شأنّه أن يُضعف سورية ويجعلها أكثر عرضة للخطر ومن دون مكاسب حقيقية للمعارضة، وهذا بالفعل ما كشفته التطورات لاحقاً وصولاً للمرحلة الراهنة التي لا يُعرف ما الحصاد الذي جنته أمام هذا الاختلال الواسع في مفاهيم الحياة والأخلاق والسياسة. ولا يكمن خبل المعارضة بعدم موافقتها إجراء تسوية تاريخية مع النظام بل سارعت إلى ربط أهدافها بمصالح دول إقليمية ودولية، وزجّت بنفسها في ساحة منافسة تاريخية بين المحور التركي في مواجهة المحور الروسي، وبين المحور الأميركي في مواجهة المحور الإيراني وما انفجر عنها من متغيرات في موازين القوى وانحلال للأحزمة الجيوسياسية القديمة، وفتحت ذراعيها لكل المجموعات الراديكالية الرديئة وغيلان الإرهاب التكفيري التي كانت تعمل لإقامة نظامها الإبليسي الخاص بها، ظنّاً منها أنّ نشر الفوضى واستجلاب الحركات المتطرفة بكل مغالاتها وتوّحشها سيدفع المجتمع الدولي إلى احتضانها. بيد أنّها لم تكن على دراية كاملة أنّ الدول المناوئة لسورية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية كانت تستعمل الجميع على حدّ سواء، المعارضة الإئتلافية التي أنشأت، من الفنادق التي تقيم فيها، حكومات على الورق، وكذلك المجموعات التكفيرية التي لها أهداف تتجاوز الساحة السورية كما هو الحال مع النصرة وداعش، وتستثمر كل هذيان ممكن، بمهارة شيطانية، لإرساء مشروع أعلى، يتمثل بضرب فكرة وخيار المقاومة إنْ كان من ينشدهما دولة أو شعباً أو فئة، وإعادة رسم خريطة جديدة للمنطقة تلحظ كل مستوياتها مصالح هذه الدول وامتيازاتها في التوازنات الجديدة.

لم تطل المدة حتى بدأت الشعارات المنددة بحزب الله تبرز إلى العلن وتنقلها وسائل الإعلام المختلفة. حزب الله لم يكن حينها قد انخرط بشكل مباشر في الحرب الدائرة في سورية، ولم تكن مواقفه تركّز إلا على التهدئة واعتبار الشعب هو المرجعية الصالحة لأي تغيير سياسي ودستوري. مع ذلك تأجج الخطاب الطائفي بصورة دراماتكية، واستُحضرت فتاوى التكفير والانتقام والثأر، وجرى استدعاء مشوَّه ومبتسر للتراث الديني لتغذّي المخيال الجهادي الذي يقوم على نفي الإيمان والإنسانية عن الشيعة والعلويين وغيرهم من الطوائف الإسلامية والمسيحية لتبرير عمليات التطهير والقتل وكل الممارسة الانتقامية بحق المناوئين، وبدأ الخوف فعلياً على المقامات الدينية المقدسة وخصوصاً مقام السيدة زينب عليها السلام في غوطة دمشق التي هددت جماعات متطرفة بهدمه بعد فتاوى تُعطي المشروعية الدينية والمسوّغ الفقهي لهذا الفعل، في وقت لاذت المؤسسات الدينية الرسمية في العالمين العربي والإسلامي بالصمت، وتركت لهذه الجماعات أن تعلن بسفور، عن دوافعها الحقيقة وأهدافها في تقسيم المسلمين إلى أهل إيمان وأهل كفر وردة!

كانت نصوص التكفير التي يجري تسييلها على شكل شعارات وأناشيد وأشرطة مسموعة ومرئية لا تنضح بالكراهية فحسب بل تحمل شحنة عدوانية مبرأة من كل عيب ومساءلة وشبهة. التكفير عبادة وشعيرة دينية يُتقرب بها إلى الله وليس مجرد عقيدة سلالية ينقلها جيل إلى جيل آخر لتحديد دائرة الإيمان وهوية المؤمنين. التكفير بهذا المعنى ممارسة وأفعال وإجراءات مجالها الواقع، أي إنّها تنشد السلطة والحكم لتنفيذ شرع الله بحد السيف! لقد شدّت هذه النصوص الجهاديين الإسلاميين، خصوصاً مع إعلان القاعدة على لسان زعيمها أيمن الظواهري الشام أرض جهاد ورباط، من عزيمتهم للذهاب إلى سورية على اعتبار أنّ «عزّ الشرق أوله دمشق» مع تحديد مهمة إضافية بعد الإطاحة بنظام الرئيس الأسد هي القضاء على حزب الله.

مع الوقت بدأت تتجمع لدى دوائر الحزب السياسية والأمنية معلومات وافية عن الظروف الجديدة في سورية، ومن خلال تحليل شامل للعناصر الداخلية والخارجية وخطر الإرهاب التكفيري الذي نجح خلال فترة وجيزة في التموضع على الحدود الشرقية والشمالية للبنان بحشود هائلة تمهيداً لعملية اجتياح واسعة للأراضي اللبنانية كما بينّت ذلك لاحقاً التحقيقات الميدانية والمعلومات الاستخبارية.

وكان حزب الله حينها قد وصل إلى مجموعة من الحقائق والاستنتاجات:

ـ الحراكات الشعبية التي جاءت عقب فورة جماهيرية بدأت في تونس وامتدت بشكل سريع إلى بلدان عربية أخرى، وإن كانت لها مبرراتها الداخلية وانطلقت بدافع المطالبة بالإصلاح والتغيير في بنية النظام وتوسيع دائرة الحريات، لكنّها لم تكن خالصة من شوائب التوظيف الخارجي وممارسة الضغوط المنظمة من قبل دول قريبة وبعيدة للتأثير في الرأي العام لدفع سورية إلى متاهات السقوط في الفوضى التي عمت العالم العربي.

ـ اتضح باكراً أنّ الحراكات الشعبية توّفر المناخ الملائم لبروز التناقضات الطائفية والقومية والمناطقية والقيمية وتشكّل فجوات تمرّ عبرها جماعات مكتومة الطموح كجماعة الإخوان المسلمين مستعدّة لتغيير الهوية الوطنية والشخصية القومية من أجل الوصول إلى السلطة، ولم يكن يضيرها البتّة، هي أو غيرها، أن تُشعل النار من كل حطب، وأنْ ترتمي في أحضان المستعمر، وأن تقع في انزلاقات دينية خطيرة بلا تضجّر وانزعاج.

ـ شكّل انتصار المقاومة على العدوان الإسرائيلي عام 2006 ودور سورية البارز فيه، تحولاً كبيراً في معادلات القوة الإقليمية. نتائج العدوان أبرزَ المثلث الاستراتيجي (طهران- دمشق- الضاحية) بلون واضح، وولّد ظروفاً جيوسياسية ومناخاً نفسياً وثقافياً في العالم العربي والإسلامي جعل الصهاينة يستشعرون خطراً وجودياً حقيقياً للمرة الأولى منذ نشأة كيانهم، فعدوان تموز ونتائجه تعتبر من المقاييس الأساسية التي ساهمت في التطورات في سورية. كانت تلك المرحلة قاسية على القيادات الإسرائيلية التي عزمت على الثأر من سورية التي ساهمت في صمود وانتصار المقاومة، إذ في ضربها وانتاج نظام سياسي بقالب جديد ستتمكن «إسرائيل» من فك ارتباط المقاومة بسورية ومنع وصول السلاح منها إليه!

ـ إنّ من أخطر النتائج التي أعقبت «الانتفاضات» في العالم العربي بروز خرائط تُقسّم المنطقة إلى دويلات طائفية ومذهبية وعرقية. لقد خرجت إلى العلن خرائط تمّ التصديق عليها في إطار التخطيط الاستراتيجي من قبل حكومات غربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية ، وذاع صيت أسماء لسياسيين ككوندليزا رايس ومفكرين كبار كبرنارد هنري لويس وعرّابين للـ«الفوضى الخلاقة» كبرنارد هنري ليفي عملوا على مشروع رسم جغرافية المنطقة على أساس أن تبقى «إسرائيل» هي الدولة المحورية التي تملأ كل الفراغات الاستراتيجية التي ستظهر خلال العمل على إنشاء «الشرق الأوسط الجديد»!

ـ إنّ إسقاط النظام في سورية لا يُراد منه النظام فقط، بل إنهاء آخر حلقات الصراع العربي الإسرائيلي الذي تمثله سورية، وصولاً إلى إسقاط القضية الفلسطينية من بورصة التداولات الإقليمية والدولية، وتحويل كل الإمكانيات والقدرات العربية والإسلامية نحو مجرى آخر وهو صراع «الأخوة الأعداء»، وحيث سيسمح هذا الوضع الجديد باستنزاف الطاقات المادية

في أن يكون الإسلام هو الحل فعلاً

عبدالرحمن جاسم *

«إن ما سيسود هو ما يجب أن يسود، لا ما يريده المجتمع. أحياناً قد يحصل ما يريده المجتمع، ذاك أمرٌ عرضي. في النهاية الجميع يموتون».
كينغ بين (زعيم الجريمة المنظمّة في سلسلة «الشيطان الجريء» من مارفل كوميكس)

خلال الخمسمائة عامِ المنصرمة، لم تجرِ أي قراءة «كاملةٍ/ تحليلية» للإسلام؛ وهنا لا نعني بتحليلية الجانب الديني أو العبادي/ الفقهي فقط، بل ما نتحدّث عنه هو المنظومة السياسية الاجتماعية الحاكمة. ورغم عدم كل هذا، فإن الإسلام ظل قادراً على إنتاج نفسه بأشكالٍ متعددّة ولو عبر فطراتٍ هامشية مخيفةً أو كما تدعى باللغة الإنكليزية Fringes. تحظى تلك الطفرات في غالبية الأحيان بالاهتمام الأعم والأشمل من «المعتاد/ اليومي» الإسلامي. مثلاً يحظى «داعش» بالاهتمام أكثر من مئات الحركات الإسلامية الهادئة أو المسالمة عموماً، طبعاً قد يشير البعض إلى «دموية» هذه الطفرات أو إلى ارتكازها على أفكارٍ «هدامة/ مدمرة». كل ذلك قابلٌ للنقاشٍ بالتأكيد لكنه ليس المقياس الحقيقي للأمر؛ فالمقياس ينقسم إلى طريقين: ما يريده الغرب كمصلحةٍ «تسييرية»، وما يريده الغرب «مشاعاً» حول الفكرة في حد ذاتها.

بعيداً عن نظرية المؤامرة، والتي لا ريب أن بعضاً من مفاعيلها يحدث فعلياً، إلا أنّه وبمقتضى الحال يسيطر «الغرب» (سواء عبر حكوماته/ شركاته/ أثريائه) على «كل» وسائل التواصل العالمية المؤثّرة (الاجتماعية منها والكلاسيكية). باختصار أدق: لا يمكن أن تمر «فتفوتة» معلومات حول أي أمرٍ لا يريده الغرب أن يمر. قد «يحدث» خيطٌ رفيعٌ من مرور، ولكنه سرعان ما يتم إغلاقه وملاحقة مسرّبيه بشكلٍ «عنيف» و«موضعي» (تسريبات سنودن، أو ويكيليكس ـ أسانج وطريقة التعامل معهما). إذا هناك إسلامٌ يرغب الغرب في «تظهيره» وتعويمه أحببنا ذلك أم لم نفعل؛ هذا الإسلام غالباً ما يكون «طفرياً» (إلا في بعض الحالات الخاصة كما حدث مع إعطاء الضوء الأخضر الأوروبي للبعثات الوهابية السعودية بالسيطرة على الجوامع الأوروبية خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي مثلاً) إذا ما احتاج الغرب إلى وسيلةٍ/ مطية للدخول إلى منابع الدفائن المذهلة في الشرق. وقد لا يكون تعبير «مذهلة» وافياً حقه، إذ يبدو أنَّ الدفائن (البتروليات والغاز على أنواعه) والصراع عليها سيظل «حاكماً» مسيطراً على الوضع السياسي الإقليمي لبلادنا. بمنطقٍ أشمل: يبدو الإسلام الطفري وكما يمظهره ويحتاجه الغرب مناسباً للغاية.

هنا نعود للمشكلة المطروحة عند بداية المقالة: القراءة التحليلية الشاملة والكاملة للبنية الحقيقية للإسلام. لم تحدث تلك القراءة وأي محاولة «جادةً» للقيام بذلك قوبلت بعداءٍ مستفحل وقمع سريع. لا نقاش الآن لماذا حصل ذلك أو كًيف، ولكن يمكن قراءة تجربة المفكّر الليبي الصادق النيهوم ومحاولته الدؤوبة لإيجاد «استعمال/ وظيفة» للجامع وصلاة يوم الجمعة، وكيف وصل الأمر في النهاية إلى منع بيع كتبه في كثيرٍ من الدول العربية. طبعاً تلك تجربةٌ «صغيرة» لا يمكن القياس عليها، فما نتحدث عنه ههنا هو أشبه بدراسة أكاديمية منهجية غير مواربة ولا محابية لأحد؛ وهذا الأمر بالطبع فضلاً عن كونه مرفوضاً من الجميع غير منطقي حدوثه البتة.

في الإطار عينه، يأتي السؤال الأكثر أهميةً: